الخـاتـمـة

بعد هذا السعى الشاق وراء سيل من الأسئلة المتدفقة، وأمام طوفان من الاحتمالات المفتوحة – حاول العقل الإنسانى من خلالها سبر جوهر الحياة والموت – كان لابد من لحظة استرخاء وتأمل. فالحقيقة بعيدة متعالية، والكون ينطوى على ملايين الأسرار، والحياة أفق شاسع ومجال الرؤية محدود فيه؛ والمستقبل ما زال لغزاً غامضاً مغلقاً ومختفياً وراء حجب الضباب.

والإنسان الذي بذل جهداً مضنياً، في محاولته لكشف الغطاء عن سر الموت، ما زال يموت في كل يوم وفى كل لحظة . وفكرة الخلود، التي ظل يسعى نحوها ويغذيها بكل ما يمتلكه من شحنات الأمل، ظلت رغم ذلك فكرة مجردة لا يمكن تحققها.

لكن من الطريف أن نتساءل: عما إذا كان الإنسان يهتم حقيقة بخلوده في الحياة الدنيا، أم يسعى لتأمين خلوده في الحياة الأخرى؟ لقد أقر "موريس بلوندل"(*) بأن "فكرة الموت نفسها ما كانت لتكون ممكنة أو واقعية أو حقيقية، ما لم تكن لدينا ثقة ضمنية أو يقين مطوى عن الخلود". كما رأى "وليام هوكنج"(**) أنه من خلال خبرتنا نستطيع أن نتحقق من خلود الإنسان، أي إن الإنسان إذا زعم لنفسه الخلود من الموت، فهو لا يحتاج – في تأييد زعمه ذاك – إلى نبأ يأتيه من خارج نفسه؛ بل كل ما يحتاج إليه هو أن ينطوى على ذات نفسه فاحصاً محللاً مستشهداً

(*) "موريس بلوندل" Maurice Blondel (1861 – 1949) فيلسوف فرنسى يقف في الميدان الكاثوليكى الخالص، ويعد "بسكال" أحد أسلافه الكبار؛ وهو أيضاً من خصوم المذهب العقلى ومن خصوم الإيمانية. يرى أننا لن نصل أبداً – لا بالعقل المحض ولا بالإيمان – إلى اليقين الأخلاقى، فهذا الأخير فعل يقوم به الإنسان. وإن ما لا نستطيع أن نعرفه (خاصة ما لا يمكن فهمه بتميز) يمكن أن نعمله ونمارسه. يقول: "الوجود والحياة ليسا بالنسبة إلينا فيما يفكر فيه، ولا حتى فيما يُعتقد به ولا أيضاً فيما يمارس، بل فيما يتم ممارسته بالفعل".

(**) وليام أرنست هوكنج William Ernest Hocking (1873 – 1966) مفكر أمريكى ذو نزعة دينية أخلاقية، فكره الفلسفى مزيج من الواقعية والتصوف والمثالية.

بما يقع عليه هناك من شواهد، وإذا الخلود(*) نتيجة محتومة لا شك في صدقها؛ حتى وإن وصفه الواصفون بالموت والفناء.

والحق أن الإنسان ما زال في أعماقه يفضل الخلود في الحياة الدنيا، وإذا استطاع أن يختار بين الحياة والآخرة، لاختار – بكل بساطة – أن يظل في الحياة إلى الأبد سواء أكان سعيداً أم تعيساً. ذلك لأنه لا يعشق الحياة، في مفهومها المجرد، بل يعشق الحياة كما هى متمثلة فيه. إنه هو الحياة بالذات، وإن تكالبه عليها إنما يعود لقوة السلطة المركزية التي تسيطر عليه من الداخل. إذن، الموت لا يمنح الإنسان الجزع من كونه يغادر الحياة قسراً فحسب، بل إنه يجزع من فكرة انتزاعه وفصله عن كل ما أنجزه وحققه في هذا العالم.

والظاهر أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا على "البدائل"، فهو يريد الحياة ويريد الأبدية؛ أو هو يريد الحياة الأبدية التي لا تعرف التناهى أو الانتهاء أو الفناء. وعبثاً يحاول الفيلسوف أن يضعنا بإزاء قياس الإحراج الذي يقول لنا: "إما حياة بلا خلود، أو خلود بلا حياة"، فإننا – في مثل هذه الحالة – لا نملك سوى أن نتصرف كالطفل الذي يريد كلا الأمرين، لأننا نريد "الحياة" ، ونريد – في الوقت ذاته – "الخلود".

* * *

(*) المعنى الذي يقصده "هوكنج" بفكرته عن الخلود، هو ما يبدعه الإنسان ويخلقه بذاته .